بسم الله الرحمن الرحيم

فزَّاعة من قش!

الحمد لله...

فزَّاعة من قش وأثرها في القلوب!

ما أسرع ما تتعلّق القلوب بالأخبار، وما أشدّ ما تضطرب النفوس حين يتردّد في الأسماع خبرٌ يظن الناسُ أنه قد يبدّل موازين الأحداث، لقد سرت في الأيام الماضية أنباءٌ عن نهاية أحد الذين طال حضورهم في نشرات الأخبار، وكثر ذكرهم في مجالس الناس، حتى غدا اسمه حاضرًا في كل حديثٍ عن الصراع والاضطراب والإرهاب في هذا العالم.

ولم يكن غريبًا أن يتلقّى كثير من المسلمين هذا الخبر بلهفةٍ بالغة، وكأنهم يتطلّعون إلى لحظة يخيَّل إليهم أنها قد تفتح بابًا جديدًا في مسار الأحداث، فبعض الناس يتصوّر أن غياب شخصيةٍ واحدة عن المسرح قد يغيّر وجه الواقع، وأن اختفاء رجلٍ بعينه قد يكون مفتاحًا لانفراجٍ كبير، وربما لبداية نصرٍ يلوح في أكثر من ساحة.

ومن هنا نشأ عند طائفةٍ من الناس إحساسٌ بالعجز أمام بعض الذي اشتهروا بالظلم والطغيان، حتى خُيِّل إليهم أن

مواجهتهم أمرٌ لا يكاد يُتصوَّر، ومع تراكم الأحداث وتعاقب الوقائع تحولت بعض الدول وقادتها في أعين الناس إلى صورةٍ من صور الفتنة، وظن البعض أن إرادتهم نافذةٌ في كل مكان.

الحقيقة القرآنية!

غير أنّ الحقيقة التي ينبغي أن ترسخ في قلوب المؤمنين رسوخ الجبال، أن مقاليد الأمور ليست في يد بشرٍ مهما علا شأنه أو عظم نفوذه، وإنما هي بيد الله وحده سبحانه.

وقد قرّر القرآن هذه الحقيقة تقريرًا جازمًا لا يدع مجالًا للريب، فالمسلم يعلم علم اليقين أن زمام الأمور جميعها بيد الله. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾آل عمران: ١٥٤، تأمل هذا التعبير القرآني البليغ: الأمر كله، ليس جانبًا منه ولا أكثره، بل كل ما يقع في هذا الكون إنما يجري بعلمه، ويمضي بحكمته، ويقع بتقديره.

قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾هود: ١٢٣.

وسواء انتهت حياة قائد أو بدأت حياة طاغية، فإن ميزان النصر والهزيمة في حياة المسلمين لا يُبنى على وجود شخصية

في الطرف الآخر تُوصَف بالدهاء أو القوة أو الحنكة، وإنما يقوم في حقيقته على حال المسلمين أنفسهم، فحين تضعف الأمة في إيمانها ووحدتها وقيمها تتسلّط عليها القوى من حولها.

الهزيمة لا تترجم بقوة الخصم، وإنما بضعف العزيمة!

ولهذا ينبغي أن تبقى هذه القاعدة واضحة راسخة في الأذهان: إن هزيمة المسلمين لا تنشأ من قوة أعدائهم، وإنما تنشأ من ضعفهم هم.

عودة إلى القرآن مجددًا انظر كيف يعلّم الأمة أن تقرأ أحداثها قراءة صحيحة، فعندما وقعت معركة أُحد لم يعلّق القرآن أسباب نتائجها ببأس المشركين، ولا بحذق قادتهم في القتال، مع أن فيهم رجالًا عُرفوا بالخبرة العسكرية، فلم يوجّه القرآن الأنظار إلى قوة الخصم، بل وجّهها إلى موطن الخلل في صفوف المسلمين أنفسهم، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾

انهزام الإمبراطورية الفارسية!

ولهذا وقف كثير من المؤرخين والباحثين أمام حدثٍ تاريخي عظيم وقفة المتحيّر المتأمل، حين رأوا كيف انهارت الإمبراطورية الفارسية على أيدي المسلمين وهي من أعظم

إمبراطوريات الأرض يومئذ، فقد بدت لهم المسألة عجيبة: كيف لدولةٍ مترامية الأطراف، راسخة الجذور في التاريخ، قوية الجيوش والعدة، أن تسقط أمام جيشٍ قليل العدد، محدود الإمكانات، لا يملك من أدوات الحرب ما تملكه تلك الإمبراطورية العريقة؟

لقد بدا الأمر في أعينهم لغزًا عسير التفسير.

فراح بعضهم يلتمس له تعليلاتٍ مختلفة؛ فقال فريقٌ إن الدولة الفارسية كانت تعاني خللًا في إدارتها، أو فسادًا في نظمها، أو انتشارًا للمحسوبية والرشوة، غير أن هذه التفسيرات لا تكشف حقيقة السر الكامن وراء ذلك التحول الهائل.

فالحقيقة الأعمق كانت في حال المسلمين أنفسهم؛ فقد كان على رأس الأمة يومئذ رجالٌ من طراز أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان قادة الجيوش أمثال خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن، وكان الجنود يحملون روحًا مختلفة؛ إذ كانوا يقبلون على الموت كما يقبل خصومهم على الحياة.

ومن هنا لا ينبغي للمؤمن أن يبالغ في تعظيم ما يملكه الناس من أدوات القوة المادية؛ من صواريخ باليستية، أو أسلحة نووية، أو طائرات متطورة. فهذه كلها أسباب تجري ضمن قدر الله، أما

الأمر كله فمردّه إلى الله سبحانه.

تربية تكتب لكل التاريخ!

ومن المعاني العظيمة التي تقرر هذه الحقيقة ما جاء في قصةٍ وقعت لأحد كبار الصحابة، فقد رأى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه -وهو من السابقين إلى الإسلام، ومن العشرة المبشرين بالجنة، ومن كبار قادة المسلمين- فقد رأى أن له فضلًا على من دونه من الصحابة؛ لما كان يَظهَر منه من شجاعة وبأس في القتال، فنبّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى خطأ هذا التصور، وبيّن له الميزان الحقيقي للنصر، فقال: "هل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضعفائكم؟" (١).

وفي رواية النسائي أن سعدًا رضي الله عنه ظن أن له فضلًا على من دونه من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم".

ومعنى ذلك أن النصر الذي يتحقق للأمة لا يعود إلى قوة الأفراد ولا إلى براعتهم في القتال وحدها، بل إن وراءه أسبابًا

---

(١) رواه البخاري.

خفية قد يغفل عنها الناس، من دعاء الصالحين، وعبادة المخلصين، وخضوع القلوب لله عز وجل.

ولهذا قال بعض الصحابة كلمة جامعة تلخص هذا المعنى، وهي قول أبي الدرداء رضي الله عنه: "إنما تقاتلون بأعمالكم"[1].

لماذا عزل عمر خالد بن الوليد؟

ومن المعاني العظيمة التي تؤكد هذا الميزان ما وقع في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين عزل القائدَ العظيمَ خالدَ بنَ الوليد رضي الله عنه عن قيادة الجيوش، مع ما كان له من مكانة عسكرية فذة، وما تحقق على يديه من انتصارات عظيمة في الشام والعراق.

فلماذا عزل عمر خالدًا؟ لم يكن عزل عمر لخالد رضي الله عنه لضعفٍ في قيادته، ولا لتقصيرٍ في جهاده، وإنما كان لعلّةٍ تربويةٍ عظيمة؛ إذ خشي عمر رضي الله عنه أن يفتتن الناس بخالد، وأن يظنوا أن النصر مرتبط بشخصه وبراعته العسكرية، فأراد أن يقرر للأمة حقيقةً كبرى: أن النصر من عند الله وحده، لا يتعلّق بشخص قائد ولا بمهارة فرد.

---

(١) رواه البخاري معلقًا.

وقد صرّح عمر رضي الله عنه بهذا المعنى، فقال: "إِنِّي لَمْ أَعْزِلْ خَالِدًا عَنْ سُخْطَةٍ وَلَا خِيَانَةٍ، وَلَكِنَّ النَّاسَ فُتِنُوا بِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الصَّانِعُ" [(١)]. فبقي خالد رضي الله عنه بعد عزله جنديًا في صفوف المسلمين، يقاتل تحت إمرة غيره، ثابتًا على إخلاصه وزهده في المناصب، فكان في ذلك درسٌ بليغ في أن العمل لله لا للمكانة ولا للقيادة.

النظر في المرآة وإصلاح الخلل.

ولو انتهت حياة ذلك القائدِ المقتول اليوم، فمن الذي سيأتي بعده؟ ومن سبقه؟ وهل كانت المشكلة يومًا في شخصٍ واحد؟ قال تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ الذاريات: ٥٣[(٢)].

ومع ذلك، فإن زوال بعض الشخصيات قد يكون سببًا في شفاء صدور المؤمنين؛ لما وقع منهم من أذى وضرر على المسلمين، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم على أفرادٍ بأعيانهم حين اشتد أذاهم وعدوانهم.

غير أن هذا لا ينبغي أن يصرف الأمة عن واجبها الأهم: أن

---

(١) البداية والنهاية (١٠/٤٧).

(٢) الاستفهام هنا لتعجب ما حصل من كفار الأمم من تواطئهم.

تنظر في مرآتها، وأن تعالج خللها، وأن تصلح علاقتها بربها، فلا تنشغل بعدد أعدائها ولا بضخامة أسلحتهم، بل تتوجه إلى الله اعتمادًا وتوكّلًا [1].

وصايا من عين الحروب!

إذا كان المسلم يتأمل هذه الأحداث ويستحضر سنن الله في النصر والهزيمة، فإن من الواجب عليه كذلك أن يتذكر نعم الله العظيمة التي يعيش في ظلها، وفي مقدمتها نعمةَ الأمن والاستقرار؛ فهذه نعمة جليلة لا يعرف قدرها إلا من فقدها. وقد امتنَّ الله بها على عباده، وربط دوامها بشكره سبحانه، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾إبراهيم: ٧، فدوام النعم مرتبط بشكر المنعم سبحانه وتعالى.

ومن شكر هذه النعمة أن يحذر المسلم من أن يكون سببًا في زعزعة الطمأنينة بين الناس بنشر الشائعات وتداول الأخبار دون تثبّت، وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فقال: «كَفَى بالمرءِ كذبًا أن يُحَدِّث بكلِّ ما سمع» [2].

---

(١) انظر قناة د. راغب السرجاني "هل قتل نتن ياهو؟".

(٢) رواه مسلم.

كما ينبغي للمسلم أن يتجنب الخوض في تفاصيل الأحداث والأزمات في المجالس أو عبر وسائل التواصل، فإن لكل شأنٍ أهله، وقد وجّه القرآن إلى ردّ الأمور إلى أهل العلم والرأي ومن ولاهم الله أمر الناس، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾النساء: ٨٣ .

ومن الأمور التي ينبغي التنبيه عليها كذلك الحذر من تصوير أو تداول المقاطع المرتبطة بالأحداث الأمنية؛ لما في ذلك من نشر الإرجاف بين الناس، وإشاعة الخوف في المجتمع، وتعريض الأنفس والمصالح للخطر، وربما كان في ذلك إعانةٌ للعدو على تحقيق مقاصده.

وكُتِبَ في ١٧ / ٩ / ١٤٤٧ هـ

أ.د عاصم بن عبدالله بن محمد آل حمد